سر الزواج في الحق القانوني الشرقي الجديد / الخوري وهيب الخواجه. — في Revue juridique de l'USEK : Nº 1 (1992) .— ص. 109-121.

الزواج — النواحي الدينية — المسيحية .II الزواج (القانون الكنسي) .I

PER L1311 / FD56556P

سر الزواج في الحق القانوني الشرقي الجديد[١]

بقلم
الخوري وهيب الخواجه
قاضٍ في المحكمة البدائية المارونية الموحَّدة
استاذ اللاهوت الأدبي في كلية اللاهوت الحبرية

ان الحديث عن سر الزواج انطلاقًا من التشريع الكنسي لا يخلو من الصعوبات. وأولاها هي الفرق بين لغة القانون ولغة اللاهوت في الاسلوب والمنهجية. فبينما تمتاز الأولى بالاقتضاب محدّدة إطار الزواج القانوني، تؤثر الثانية التوسيع والتحليل مسهبة في تفسير النظرة المسيحية الى الزواج من كل جوانبه. لذا فالباحث في سر الزواج لا يمكنه ان يتكل اتكالاً مطلقًا على القوانين اذا ما أراد ان يخرج بتفسير كاف وواف له. انه يلجأ الى تعليم الكنيسة في هذا الأمر والى الفكر اللاهوتي لكي يعمّق نظرته الايمانية الى الزواج ويحيط باسباب التشريع الكنسي ومعانيه.

والصعوبة الثانية تنبع من الفرق في الغاية بين اللغتين. فغاية القانون تنظيمية وتدبيرية. أما اللاهوت فغايته توجيهية وتعليمية. واذا سلمنا بأن الزواج وان استند الى اطار خارجي ينظّمه، يحتاج الى أكثر من هوية قانونية، ادركنا كم ان التعليم والتوجيه امران ضروريان لأنهما يُبرزان الاسس والمبادىء التي يقوم عليها الزواج والتي تشكل القاعدة لتنظيم قانوني يتوافق وحقيقة الزواج المسيحي. لذلك لا يمكن شرح القانون بالقانون أي استخدام اللغة القانونية لتفسير التشريع الكنسي لأن هذا الأخير انما هو صدى لحقيقة تعليمية في الزواج نجدها في وثائق الكنيسة وارشاداتها. ولا بد هنا من

---

(١) محاضرة أُلقيت في الندوة الأولى حول «مجلة قوانين الكنائس الشرقية»، في كلية الحقوق، جبيل–لبنان، في ٢١ آذار ١٩٩٢.

التنويه بان تشريع الزواج الجديد قرّب المسافة بين القانون واللاهوت وعكس ادراكًا كنسيًّا عميقًا لواقع الحياة الزوجية واحترامًا بالغًا لقيمة الشخص البشري وكرامته وذلك تجاوبًا مع روح المجمع الفاتيكاني الثاني وما تبعه من وثائق كنسية تناولت موضوع الزواج المسيحي.

فاستنادًا الى ما قلته، اعرض في حديثي هذا نقطتين تتناولان على التوالي ماهية الزواج المسيحي وطبيعته وتحضير المؤمنين لسر الزواج وترتكزان على القانونين ٧٧٦ و٧٨٣.

١ – ماهية الزواج وطبيعته

يتحدث القانون ٧٧٦ عن الزواج فيقول: «ان عهد الزواج الذي أسسه الخالق وجهّزه بشرائع خاصة وبه يقيم رجل وامرأة بينهما شركة حياة كاملة بفعل رضاهما الشخصي الذي لا يُنقض، يهدف بطبيعته الى خير الزوجين وايلاد البنين وتربيتهم». ان هذا القول يدخل في سياق النظرة المجمعية الى الزواج التي نجدها في العدد ٤٨ من الدستور الراعوي «فرح ورجاء» حيث نقرأ: «لقد أسس الخالق وجهز بشرائع خاصة تلك الشركة العميقة في الحب والحياة التي يؤلفها الزوجان: انها تقوم على اتفاق القرينين اي على رضاهما الشخصي الذي لا ينقض. انها لمؤسسة تثبتها الشريعة الإلهية وتنبثق، في نظر المجتمع نفسه، من العمل البشري الذي به يعطي كل من الزوجين ذاته للآخر ويقبل الآخر».

فالزواج هو مؤسسة إلهية لها نظامها وشرائعها وغايتها. وان النص المجمعي يستخدم كلمة «مؤسسة» أكثر من مرة ليعبر بها عن حقيقة الزواج (راجع اعداد ٤٧ – ٥٢) الذي ينعم بحماية فائقة الطبيعة اذ ان الله ذاته هو مصدره وواضع نظامه. فلا يجوز للانسان ان يتلاعب بنظام هذه المؤسسة على هواه ويُخضعها عن خطأ لشتى انواع المداخلات التي تزعزع صلابتها وتقلّل من قيمتها وتحدّ من ثمارها في حياة الفرد والعائلة والمجتمع. انها تختلف عن غيرها من المؤسسات، كونها مؤسسة أشخاص، وبالتحديد مؤسسة قائمة على رجل وامرأة. هذا هو إطارها الخارجي والمادي. ولكن ما الذي يحدّد جوهر هذه المؤسسة؟ نجد الجواب في التعبير التالي: «شركة حياة كاملة» الذي يتضمنه نص القانون، وهو يدل على ان مؤسسة الزواج تقوم خاصة على شركة عميقة

بين الرجل والمرأة تجعل من الاثنين واحدًا، وهي تظهر بذلك صلتها بالخالق الذي أرادها على هذا النحو. فالوحي الإلهي من خلال نصّي سفر التكوين ١/٢٦ – ٢٨ و٢/١٨ – ٢٥ يسمح لنا باكتشاف إرادة الله في الزواج وهي تتلخص في النقاط التالية:

- الانسان صورة الله وغاية الخليقة: ان الانسان بفضل غنى الله وحكمته اللامتناهية هو صورته على الأرض. وهو الخليقة الوحيدة التي تستطيع ان تتحدث باسمه وان تعكس صورته بين الناس وفي الخلائق. وهو قادر بما اعطاه الله من عقل وقلب ومن إرادة وشعور على إقامة علاقات مع الآخر يكتمل بها ويعكس حقيقة الشركة الموجودة بين الاقانيم الثلاثة.
- صورة الله تكتمل في الذكر والانثى: ان ارتباط الذكر والانثى بصورة خلق الانسان يجعل كل محاولة للتركيز على أحد الشكلين تتخطى الاطار الصحيح. فالثنائية في الشكل هي في خدمة صورة الانسان الموجودة كاملة في الذكر وفي الانثى وخاصة في اتحادهما. لذلك نجد ان هناك دعوة صريحة الى احترام وجود الآخر في العلاقة الثنائية على كل الأصعدة، بدءًا بالعلاقة الجسدية وانتهاءً باكتشاف حضور الله والخضوع لإرادته. هذه الصورة التي يتبادلها الرجل والمرأة هي اساس المساواة التامة بينهما.
- المرأة هي صورة الانسان المقابلة للرجل: انها الوحيدة بين الخلائق التي تظهر مساوية له وكأنها صورته المشابهة. لها نفس الجوهر ونفس الهدف. وهذا يظهر من خلال دور العضد الذي تقوم به. انه ليس بالعقد الجسدي أو الخارجي فحسب. ولا هو باستعدادها للخضوع الجنسي أو لكونها وعاء يحمل المولود الآتي الى العالم. انه سند جوهري، خُلِق. فوجود المرأة ضروري لكي يتمكن الرجل من تحقيق تكامله في شركة حياة معها. انها رفيقة وشريكة. هي عنصر تكامل ان على المستوى الجسدي وان على المستوى النفسي والروحي. لذلك لا يستطيع اي انسان، مهما كانت درجة قرابته، ان يحل محلها في حياة الرجل.
- الزواج هو اتحاد الرجل والمرأة: وهو يقوم على إرادة متبادلة تؤسس شركة حياتهما. وهذا يفترض الاستعداد لترك كل صلة مهما كانت مقدسة كالصلة بالوالدين

والتضحية بها من أجل هدف اسمى هو الطاعة لإرادة الخالق في تكامل صورة الانسان بالاتحاد الزواجي.

ان إرادة الله هذه تطبع الزواج بطابع القدسية. فطبيعة الزواج مقدسة، حتى قبل ان يرفعه المسيح الى مقام السر. فالإرادة الإلهية التي ظهرت في الخلق تشمل كل انسان وهي تعبر عن الدعوة الشاملة لكل انسان كي يحيا زواجه كما يريده الله فرصة لتجسيد روح التكامل البشري في شركة حياة ثنائية المظهر وواحدة الجوهر والهدف تكون مثال الحياة البشرية. فليس كالزواج حقيقة بشرية تمس عمق الشخص البشري وتصلح إطارًا يفجّر فيه الانسان قدراته وطاقاته ويجمع فيه بين أوجه حياته المتعددة ويشعر خاصة بواسطته ان له اصبعًا في استمرارية الجنس البشري، لا استمرارية العدد فحسب بل استمرارية تترافق مع نمو الانسان والسير قدما في دعوته السامية الى ان يبلغ كما يقول بولس الرسول الى ملء قامة المسيح.

الأمر الثاني الذي نتناوله في هذه النقطة وهو يشكل تجديدًا في التشريع الجديد هو استعمال كلمة «عهد» بدلاً من كلمة «عقد» المستعملة في التشريع السابق. وهذا التبديل ليس اعتباطيًا ولا ظرفيًا. له اسبابه الوجيهة، ومنها ان كلمة «عقد» تعبر عن نوع من الاتفاق الثنائي الذي يخضع لإرادة المتعاقدين أو لغيرهم ممن يحتلون مكانهم لتتميم العقد وهي تعكس نظرة مادية ومحدودة للزواج تخفي طبيعته الصحيحة، وتخضعه للنقض والانحلال عندما ترتأي إرادة المتعاقدين ذلك. أضف إلى ذلك ان كلمة «عقد» لا تُبرز طبيعة الشخص المتعاقد على حقيقته أي في شموليته الذاتية وفي إطاره الشخصاني.

أما السبب الأهم في استعمال كلمة «عهد» فيكمُن في انها الكلمة التي تصف علاقة الله بالانسان. انها كلمة كتابية وهي تعني الميثاق الذي أقامه الله مع شعبه بان يكون لهم إلهًا ويكونون له شعبًا. انها تختصر صنيع الله مع الانسان. وهي تحمل في طياتها كل الصفات التي ظهرت في التدبير الخلاصي كالغيرة والامانة والرحمة والمحبة والغفران والتواضع والفقر الى ما هنالك من قيم خلاصية جسّدت حضور الله بين البشر. وان استخدام هذه الكلمة في تحديد الزواج يعني شيئين مهمين:

الأول وهو ان الزواج حالة حياة عميقة تتطلب التزامًا كليا من الانسان لا يوفَّر فيه

جهدٌ او تضحية. وهو عطاء شخصي للآخر في شركة حب عميقة.

والثاني وهو ان الزواج صورة لعهد الله مع خليقته. فهو وان تجسّد واقعًا في علاقة حب وشركة حياة بين اثنين لا يكتمل إلا بانفتاحه على حضور الله. انه عهد بين من صار واحدًا وبين الله. فإذا كان عهد الله مع الانسان قد بدأ بالخلق حيث كشف الله إرادته في الزواج وهو يريد ان يكون الترتيب الذي وضعه طريقًا للانسان كي يقيم معه عهدًا، فان عهد الانسان في الزواج هو في الوقت عينه عهدٌ مع الشريك الآخر وعهد مع الله. به يدرك كل من المتعاهدين ان حياته الزوجية هي علاقة شخصية يبنيها بالعودة الى الله. وهكذا تتثبت صلة الحياة الزوجية بالخالق الذي أسسها.

تدخل مسألة غاية الزواج في خانة التجديد الذي يظهره التشريع الجديد. فالقانون الثاني من التشريع السابق يقول: للزواج غاية أولية هي ولادة البنين وتربيتهم وغاية ثانوية هي التعاون المتبادل ومداواة الشهوة. اما القانون الجديد فيذكر بأن عهد الزواج يهدف بطبيعته الى خير الزوجين وايلاد البنين وتربيتهم. وهو لا يتحدث عن غاية أولية وغاية ثانوية، فيسير بذلك في الاتجاه عينه الذي رسمه المجمع الفاتيكاني الثاني بقوله: «للزواج قيم خاصة وغايات متنوعة» («فرح ورجاء، عدد ٤٨). ويقول في موضع آخر: «ولذا فالحب الزوجي الحقيقي المفهوم تمام الفهم، وكل تركيب الحياة العيلية الناتجة عنه، يميلان دون ان يزدريا مع ذلك غايات الزواج الأخرى الى ان يجعلا الزوجين مستعدين ليساهما بشجاعة في حب الخالق والفادي...» (عدد ٥٠) إلا أن النص المجمعي لا يذكر شيئًا عن هذه الغايات الأخرى ويكتفي بالتنويه بالتعاون المتبادل بين الزوجين.

لذلك فان التعبير المستخدم «خير الزوجين» يمكن اعتباره تعبيرًا ذا معنى واسع يتناول عن حق كل ما من شأنه تعزيز شركة الحياة الزوجية، باستثناء انجاب البنين وتربيتهم الذي يشكل غاية في حد ذاته وهو من طبيعة الحياة الزوجية ولا يمكن دمجه بالغاية المحدّدة بخير الزوجين. إلا ان هذا المعنى الواسع الذي يعكسه تعبير «شركة حياة كاملة» يمكن حصره استنادًا الى ما يقوله المجمع في علاقة الحب وفي التعاون المتبادل بين الزوجين. ولا بد من لفت النظر في هذا المجال الى ان ذكر الغايتين معًا دون تقديم الواحدة على الأخرى لا يعني ابدًا ان الزوجين يستطيعان ان يختارا احداها ويرفضا

الأخرى، بل عليهما ان يختارا الزواج كما هو في غاياته المتنوعة. يبقى انهما يستطيعان تكييف حالتهما الزوجية وفقًا لظروفهما المتعددة واستنادًا الى ما تقدمه من معطيات تجاوبًا مع تنوع غاياتها. وان المشكلة الاساسية تظهر عندما يحاول الزوجان ان يفصلا فصلاً مطلقًا بين خيرهما والانجاب فينظران الى الإنجاب وكأنه حاجز امام خيرهما الزوجي. وهذا يدل على المنحى الخاطىء الذي يتخذه الانسان في حكمه على قيم الحياة الزوجية منقادًا إلى ميله الأناني فلا يصل الى اختبار العلاقة الزوجية وعيشها على النحو الانساني اللائق. فخير الزوجين لا يرتبط برغبات وأفكار خاصة بل بمثل وقيم إنسانية أولاها الحب البشري الذي «يصدر عن شخص نحو شخص آخر بقوة العاطفة والإرادة ويتناول خير الانسان بكامله» (فرح ورجاء عدد ٤٩) وان إطار هذا الخير هو العلاقة القائمة بين الحياة الزوجية في مختلف ابعادها، وخاصة في مجال العلاقة الجنسية، والقيم الاخلاقية. فهي من الركائز الأساسية التي نبلغ بها الى تفهم معنى هذه الحياة. فالفعل البشري بصورة عامة وفعل الزواج بصورة خاصة يأخذان معناهما بالعودة الى المثال الادبي الذي يربي ضمير الانسان وانه لمن المفيد جدًا ان نفكر في خُلقية الكائن البشري لنرى مدى ارتباط الحياة الزوجية به، اذ ان دور الخُلقية هو دور جامع وموحِّد يستقطب اجزاء الانسان المختلفة ويوجّهها نحو غاية الحياة، نحو الخير. والحياة الزوجية هي جزء مهم من هذه الأجزاء وتخضع للغاية عينها. من هنا نستطيع القول بأن الحياة الزوجية ليست حقيقة معزولة عن حياة الانسان الشاملة وكأن لها مقاييسها وغاياتها المطلقة، بل هي حقيقة بشرية انسانية تتبع الانسان، تسمو بسموه وتهبط بهبوطه. لذلك فهي تفترض ان يكون لديه جواب واضح حول ماهيته، يرتكز على قيمته الأدبية من حيث انه كائن ادبي يتجسد من خلال علاقته بالآخر أي من خلال المواجهة الشخصانية التي تقوم على جدلية الأخذ والعطاء وعلى الكشف عن الذات وقبول الآخر كما هو وعلى سنّة النمو والتطور. فالشخص البشري في كيانه الأدبي منفتح على المستقبل حيث غاية تطوره الذاتي وتطور البشرية بصورة عامة. وهو في سبيل ذلك يستخدم عقله وإرادته وحريته وشعوره لإظهار ميزته الأدبية ولبناء مسيرته نحو الغاية المرجوة مرورًا بعلاقته بالآخر. ولعل غياب الشخص الآخر عن حياة الانسان هو ضربة قاسية توجه الى الإدراك الذاتي فتضعفُه وتسبب تراجعًا في القدرة على التفاعل مع الانسان ومع المحيط. فتنشأ علاقات تبدو وكأنها تدور في حلقة الذات

المفرغة متجاهلة الآخر وهي من دون علم صاحبها تعود عليه بالفشل والانحطاط لأنها بحكم الصلة الجوهرية بين الذات والآخر تتجاهل مباشرة ذات صاحبها إذ تُعمي عينيه عن اكتشاف صورته في وجه الآخر.

هذه الصورة الشخصانية للانسان هي اساس مبدأ التعاضد والتعاون الذي يُترجم عمليا بتخطي حدود الفرد. انه يصحّ خاصة في إطار الحياة الزوجية حيث ان كلا من الزوجين يفهم خيره الخاص بالانسجام مع خير شريكه وحيث ان الاثنين معًا يفهمان خير حياتهما الزوجية بالانسجام مع خير الانسان والبشرية بدءًا بالبنين وبالعائلة. وعلى هذا الاساس يصبح خير الزوجين اطارًا مشتركًا يتضمن الفعل الزوجي والتربية والعمل والعلاقة الشخصية والتخطيط المشترك وتحمل ازمات الحياة وصعوباتها، وكلها تفاصيل مهمة يجب ان لا نقلّل من اهميتها في تحقيق خير الحياة الزوجية، وهذا يتم عندما توجّه كلها نحو قيمة الشخص الأدبية التي تظهر خاصة في هذا المجال من خلال فضيلة الامانة الزوجية. انها تعني امانة الشريك للشريك الآخر. فالحاجة الى الآخر تظهر وتتوضح وتكتمل من خلال تفهم عميق لشخصه، مرتبط الى حد ما بالقدرة على البقاء معًا في منزل واحد. فحيث هناك تفهم صحيح وسليم للحياة المشتركة، هناك ارتياح وقبول متبادلان للوجود الجسدي وللمساكنة. والعكس صحيح. فالقرب من الشخص–الشريك من خلال الولوج الى اعماقه ومعرفته معرفة كاملة وصادقة يؤثر بقوة على فاعلية القرب الجسدي من خلال الفعل الزوجي، مما يجعله يعبّر تمامًا عن هذه المعرفة الكاملة والصادقة ويزيدها رسوخًا وغنى. لذا فان علاقة زوجية مبنية على هذا الاساس تجد نفسها صادقة تمامًا من خلال الأمانة الزوجية أي من خلال الرفض الدائم للمشاركة الجسدية مع أي شخص آخر. فتصبح الأمانة علامة لبلوغ الانسان الى مستوى اخلاقي وروحي عميق في عيش الحياة الزوجية، وتثبّت الحاجة الملحة في مجتمعنا المعاصر الى تأسيس الحياة الزوجية على القيم الاخلاقية والانسانية التي تصب في دعوة الانسان الشاملة الى عمل الخير.

هذه الأفكار التي يقبلها الايمان المسيحي لا تكفي في نظر المؤمن بالمسيح، لتبلغ بحياته الزوجية الى كمالها النهائي. فالزواج المسيحي لا يقوم فقط على المواجهة الشخصانية بين الانسان والانسان بالعودة الى قيمة الشخص الأدبية، بل يقوم أساسًا

على المواجهة الشخصانية المبنية على حضور الله وبالتالي على قيمة الشخص كابن لله، على صورة الابن الوحيد. فكما ان المسيح هو سر الآب وصورته أي العلامة الواقعية الظاهرة لحياة الآب الخفية كذلك المؤمن بالابن فهو بواسطة يسوع وبالايمان سر الآب وعلامته الظاهرة. أوَليس الانسان بواسطة الخلق علامة الله الفارقة في حياة العالم؟ فكم بالحري اذا آمن هذا الانسان بسر الآب العظيم الذي هو حياة الابن الوحيد. انه يصبح سر ابيه. وان الحياة الزوجية التي هي حقيقة بشرية تكتسب بُعدًا جديدًا اذ ترتفع لتصبح علامة ظاهرة لوحدة الايمان من خلال اتحاد زوجي لا ينحل. من هنا تبرز المقارنة التي يعرضها نص القانون بين الاتحاد الزوجي واتحاد المسيح بكنيسته والمأخوذة عن رسالة القديس بولس الى أهل أفسس (٥/٢١-٣٣) على انها القياس الجديد الذي يُبنى عليه الزواج المسيحي. وان لهذه المقارنة نتيجة مباشرة على حياة المؤمن الفردية والكنسية. فالمؤمن هو عضو في الكنيسة وهو ينعم باتحاد المسيح به اتحادًا لا ينحلّ يشكل غاية حياته القصوى ونموذج افعاله. انه نموذج العلاقة الزوجية التي هي اتحاد رجل وامرأة قدسها العماد وحولتها نعمة الرب الى أبناء لله، اخوة للمسيح. فأي فصل يمكن وضعه بين حياة المؤمن الجديدة وحياته الزوجية؟ وهل يجوز ان تكون الحياة الزوجية مناسبة للتنكر للحياة المسيحية ونقض النعمة التي أُعطيت بالمعمودية؟ إذا كان الفصل غير ممكن من ناحية طبيعة الزواج المسيحي – اذ ان كل زواج صحيح بين المعتمدين هو بذات الفعل سر – فهو محتمل من ناحية عيش الحياة الزوجية. وهذا يدل على ان قيمة السر ليست في التحول السحري والسريع، بل في كونه علامة اتحاد المسيح الأبدي بكنيسته، علامة تحمل في طياتها دعوة الى الارتفاع الى مستوى العلاقة الايمانية الصحيحة التي تجعل من الحقائق البشرية حقائق خلاصية تدخل في صلب تاريخ الخلاص. وإذا كانت القيم الاخلاقية والانسانية تصلح سبيلاً لإنجاح العلاقة الزوجية من خلال الامانة والصدق واحترام الآخر والتعاون المتبادل... الخ فان قيم الحياة المسيحية وعلى رأسها الايمان والرجاء والمحبة وما يلحقها من تفانٍ في سبيل الآخر وتضحية وصبر على المشقات هي سبيل العلاقة الزوجية بين المؤمنين بالمسيح. وان ما عاشه المسيح خاصة موته وقيامته ليعبر به عن اتحاده الكامل والنهائي بالكنيسة، هو النموذج لعلاقة زوجية تصل الى الاتحاد الكامل والنهائي بواسطة نعمة المسيح. فخير الزوجين في الزواج المسيحي هو الخير الروحي، قمة كل خير، ينبع من العلاقة بالمسيح

ويُترجم بالحفاظ على وديعة الايمان ونقلها الى البنين.

انه مستوى رفيع وعميق جدًا لحالة اتحاد يعتنقها اثنان في الزواج المسيحي. وبقدر ما يستطيع ان يتجذّر في قلب الزوجين يبلغ بهما الى اختبار اكثر عمقًا لاتحادهما. انه يطول حياة الزوجين الحميمة، الخفية عن أعين الناس والظاهرة لصاحبيها. انه بالفعل مثل اختبار الايمان، لا يشعر به إلا صاحبه. ولعل قمة اللقاء بين الزواج والايمان هو ان يكون اختبار الزواج عميقًا الى حد يتساوى مع اختبار الايمان.

أما النقطة الثانية في حديثي فتتناول مسألة التحضير للزواج وهو امرٌ لم يرد في التشريع السابق. يقول القانون ٧٨٣ في هذا الخصوص ما يلي:

١ – يجب على رعاة النفوس ان يسهروا على تهيئة المؤمنين للحالة الزوجية. وذلك:

أ. بواسطة الوعظ والتعليم الديني الملائم للشبان والكبار، بحيث يتمكن المؤمنون من معرفة الزواج المسيحي وواجبات الأزواج المتبادلة وحق الأهل الأول وواجبهم في السهر على تربية أولادهم الجسدية والدينية والأخلاقية والاجتماعية والثقافية.

ب. بإعداد الخطيبين الشخصي للزواج بحيث يتهيّآن لاعتناق هذه الحالة الجديدة.

٢ – يجب حث العروسين الكاثوليكيين على اقتبال القربان المقدس في حفلة الزواج.

٣ – فليساعد رعاة النفوس الزوجين، بعد زواجهما، كي يعيشوا في العائلة حياة اكثر قداسة وامتلاءً يومًا بعد يوم، وذلك بصيانة عهد الزواج والأمانة له.

يتحدث هذا القانون عن التحضير للزواج على انه واجب راعوي ملقى على عاتق الرعاة في الكنيسة. إلا أنه لا يشكل شرطًا ملازمًا لطبيعة الزواج أو مانعًا له بحيث انه إذا ما انتفى لا تنتفي معه صحة الزواج. غير انه من زاوية العمل الرعوي واجب ثقيل وهو يعكس حاجة ملحة في عصرنا لأنه، كما يقول البابا يوحنا بولس الثاني في ارشاده حول وظائف العائلة المسيحية «قد طرأ على العيلة اكثر ربما من اية مؤسسة اخرى ما طرأ على المجتمع والثقافة من تغييرات واسعة عميقة وسريعة. وهناك عائلات كثيرة تعيش هذه الحالة وهي باقية على امانتها للقيم التي تشكل اساس المؤسسة العائلية.

لكن هناك عائلات سواها تشكو الحيرة والقلق امام ما عليها من واجبات ويساورها الشك حتى ، وربما يعتريها الجهل في ما يتعلق بحقيقة الحياة الزوجية والعائلية وما لها من معنى عميق. وهناك أخيرًا عائلات تعوقها عن التمتع بحقوقها الأساسية حالات من الظلم مختلفة» (عدد ١). وقد افرز الإرشاد المذكور، نظرًا لأهمية التهيئة على الحياة الزوجية قسمًا كاملاً هو القسم الرابع لعرض هذه المسألة. أما ضرورة هذه التهيئة فتخضع للمنطَلَقات التالية :

أ – تحمل الكنيسة رسالة تعليمية توجهها الى الانسان بصورة عامة والى ابنائها المؤمنين بصورة خاصة. وهي اذ تعيش في قلب هذا العالم تدرك خطورة الحالة التي وصل إليها الانسان في تعاطيه مع الحياة الزوجية وقيمها وما تعززه من انحرافات تطعن في الصميم كرامة الانسان والعائلة، نذكر منها زواج التجربة والمساكنة الحرة والاجهاض وطرق الانجاب الاصطناعي ووسائل تحديد النسل الاصطناعية وغيرها من الحالات التي لا تعكس تفهمًا مسيحياً للحياة الزوجية وميزاتها. فالكنيسة «تريد ان تسمع صوتها» فتساعد من يحتاج الى المساعدة وتحذر حيث يجب التحذير فتربي في كل حين ابناءها على اكتشاف الحقيقة حول موضوع مهم كالزواج.

ب – ان الزواج المسيحي وان قام على رضى الشريكين المتبادل، هو عمل كنسي. انه اساس الكنيسة المنزلية التي هي العائلة. ولا يمكن ان يكون كذلك اذا لم يرتبط الشريكان الزوجان بالكنيسة ارتباطًا حميمًا. انه يحتاج الى نعمها. فدورها مفيد اذ يرسّخ لدى المؤمنين الشعور بان ما يفعلونه في الزواج يؤثر على حياة الكنيسة.

ج – ان التشريع المدني في الزواج الذي يلجأ اليه بعض المسيحيين يتساوى احيانًا وزواج التجربة أو المساكنة الحرة وهو يشكل تحجيمًا لحقيقة الزواج ويقلّل من قيمة الاتحاد الزوجي ونوعيته. فلا يبلغ المؤمن بواسطته الى كمال شخصيته.

د – ان المداخلات العلمية والتقنية الحديثة تتناول في عصرنا حياة الزوجين الحميمة فتفقدها صلتها الأولى بالقيم الاخلاقية والانسانية وتعرضها لشتى انواع المخاطر النفسية منها والاجتماعية. فالكنيسة ترفض هذه المداخلات المرتكزة على المنطق

العلمي الجامد والتي تتنكر لطبيعة الزواج الروحية وما له من حرمة وخصوصية.

فعليه، ترى الكنيسة ان واجبها الرعوي يحتم عليها تهيئة ابنائها التهيئة الكافية. فالقانون المذكور يرسم اطار هذه التهيئة ويعطي شبه برنامج لها يتلخص في اربع مراحل:

١ – الوعظ والتعليم الديني ويمكن تسميته بالتحضير البعيد. هذا الأمر هو امتداد لرسالة الكنيسة التعليمية. مهمته عرض تعليم الكنيسة في الزواج وواجباته. وغايته توعية المؤمنين على موضوع الزواج وما يحيط به من مسائل متنوعة. ويجب ان يتلاءم هذا التعليم مع الأعمار المختلفة بحيث يكون منسجمًا نوعًا ما مع خصائص وميزات كل عمر. فذكر الشبان والكبار لا يعني حصرًا فئتين انما يهدف الى توزيع التعليم كي يكون مفيدًا ويصل الى غايته. والجدير بالذكر ان دور الأهل في هذا التعليم مهم جدًا اذ انهم يساعدون الرعاة على تهيئة ابنائهم بواسطة التربية الصحيحة التي تكسبهم استعدادًا لقبول التعليم في الزواج. وهذا يتم من خلال تربية مسيحية وانسانية تتناول كل أوجه الحياة وتسهم في بلورة شخصية متكاملة تقدر على السمو بالتزامها الى مستوى العلاقة الايمانية. هذا التحضير البعيد يدخل في خانة التعليم الديني بصورة عامة. ويوجّه الى الجميع من خلال الوعظ والمحاضرات والندوات والاجتماعات. ومن المستحسن ان يكون خاضعًا لبرنامج عمل رعوي متكامل يعطي كل عمر حقه ونصيبه من التوجيه والمعرفة. ويعير اهتمامًا خاصًا للرعاية الشخصية خاصة في عمر الشباب الخاضع لتقلبات كثيرة ولاختبارات الحياة الجنسية التي اذا ما لقيت توجيهًا سليمًا تسهم في نضج الشخصية الانسانية وبالتالي في زيادة فرص النجاح امام حياة زوجية مسيحية واعية.

هذه المرحلة من التعليم والرعاية ضرورية للغاية لأنها ترافق الانسان في فترة حرجة من نموه. ويجب ان لا تهدف الى زرع المعلومات فحسب، بل الى المرافقة والحضور الرعوي القائمين على تفهم كامل لواقع الانسان الشخصي الذي يتخطى حدود المعرفة ليصب في خانة الاختبار. وهذا ما يُلفت المجمع الفاتيكاني النظر اليه بقوله: «انه لمن اختصاص الكهنة الذين اطلعوا اطلاعًا

وافيًا على الشؤون العائلية، ان يعضدوا دعوة الازواج في حياتهم الزوجية والعيلية بمختلف الوسائل الرعوية، بالتبشير بكلام الله وبالعبادة الطقسية أو بسائر المعونات الروحية...» (فرح ورجاء ٥٢).

٢ – التحضير المباشر للزواج وهو يوجّه الى الاشخاص الذين يتحضّرون للزواج. قد يتناول هذا التحضير المسائل التي تهم مباشرة الحياة الزوجية إلا انه من الواضح ان يهتم بصورة مباشرة بإعداد الخطيبين لتفهم اعمق للخطوة التي يقومون بها وذلك بإدخالهم في معاني سر الزواج وما يترتب عليه من اختيار لنوعية حياة تعكس الاتحاد العميق الذي ينشأ بينهما في الزواج. كما وان هذا التحضير يتناول بصورة وافية الحياة العائلية وحقوق الأهل وواجباتهم وخاصة واجب تربية البنين وخصائص الانجاب.

ومن المفيد التنويه بالدور الذي يمكن ان تقوم به الجماعة الكنسية ككل في إطار هذا التحضير وليس فقط رعاة النفوس. يقول المجمع الفاتيكاني في هذا الصدد: «ولتجتهد الحركات المختلفة خاصة المنظمات العيلية بالتعليم والعمل في تثبيت الشبان والأزواج، لا سيّما المتزوجين حديثًا وان ينشئوهم على الحياة العيلية والاجتماعية والرسولية» (فرح ورجاء ٥٢). وان من بين الادوار التي تتضمنها رسالة العائلة المسيحية «مساندة الخطيبين ليتهيأوا للزواج بصورة مثلى» (قرار في رسالة العلمانيين عدد ١١). انه عمل كنسي واسع يجيش في خدمته كل الفاعليّات الرسولية في الكنيسة بحيث يرى الخطّيبان بانهما غير متروكين لوحدهما في مواجهة مشروع حياتهما الأهم.

٣ – تهيئة العروسين على اكتشاف الرباط القائم بين سر الزواج وسر الافخارستيا. وهذا التحضير يتناول الاحتفال الليتورجي بالذات الذي يكرس اتحاد الحياة الزوجية. واذا كانت ليتورجية الأسرار «تعمل على ان تقدس كل احداث الحياة تقريبًا بالنعمة الالهية التي تنبع من السر الفصحي لآلام المسيح وموته وقيامته» (دستور في الليتورجيا ٦١)، فان ليتورجية سر الزواج تنال نعمة خاصة من هذا السر الفصحي الذي يطبع الزواج بطابع الاتحاد الذي لا ينقض، على صورة اتحاد المسيح بكنيسته.

ومن المهم جدًا ان يشترك العروسان في تحضير العمل الليتورجي بالإضافة الى جميع من شارك في تهيئتهم لاقتبال حالة الزواج.

٤ – يواصل رعاة النفوس عنايتهم بالازواج بعد الزواج. وهذا امرٌ منطقي وسليم. لأن الزواج في الواقع هو بداية حياة جديدة تستوجب الاهتمام والرعاية. فالمتزوجون الجدد وان كانوا قد خضعوا قبل الزواج لمرحلة تهيئة فانهم لم يكونوا قد التزموا بعد التزامًا كاملاً بوحدة الحياة الزوجية وما تفرضه من مساكنة دائمة ومشاركة واقعية لهموم الحياة الزوجية والعائلية. وقد توسّع البابا يوحنا بولس الثاني في مسألة العناية الرعوية بعد الزواج في إرشاده حول وظائف العائلة المسيحية وأوضح انها تتعلق «خاصة بالعائلات الجديدة التي وهي تعيش في جو جديد من القيم والمسؤوليات الجديدة، قد تتعرض في أولى سنوات الزواج على الأخص، للصعوبات، كتلك التي تنشأ عن التكيّف مع الحياة المشتركة وولادة البنين» (عدد ٦٩). هذه المساعدة تتم بصورة خاصة من خلال «الأزواج الذين اختبروا منذ زمن بعيد الحياة الزوجية والعائلية» أي من خلال شهادة حياة هذه العائلات المسيحية وتهدف الى نشر القيم المسيحية السامية التي هي غاية كل خدمة رعوية في قلب العائلة الجديدة لكي تسير بخطى ثابتة نحو حياة مسيحية اكثر قداسة وامتلاءً. كما وان الكنيسة تقدم للعائلات الجديدة خدمتها الرعوية وعنايتها اللازمة «لكي تربي هذه العائلات خاصة على العيش في حب زواجي معروف بوعي للمسؤولية التي تفرضها المشاركة وخدمة الحياة. فالمحافظة على الأمانة الزوجية وصيانتها من كل خطر هما اساس كل سعي لتعميق الاتحاد الزوجي وغايته. ويشكلان المعيار الصحيح لنجاح الحياة الزوجية ونموها».

خاتمة: لا شك في ان موضوع الزواج والحياة العائلية سوف يحظى باهتمام المجمع الرعوي من اجل الكنيسة في لبنان. فتجديد الحياة المسيحية ليس مجرد مسألة تنظيمية، انما هو مسألة رعاية موضوعها هو الشخص البشري وما له من بُعد حميمي يظهر خاصة في الحياة الزوجية. فاذا ما عرفنا اساقفة وكهنة، رهبانًا وراهبات، عائلات وجمعيات رسولية كيف نرعى الزواج، هذا المحور الاساسي في حياة الانسان، نجدّد كنيستنا ونرقى بالانسان الذي فينا الى مستوى كرامته التي البسه اياها الله الخالق.